في العمق

الأدب العالمي..
مفاهيم عديدة ومصطلح متنوع

د. عبدالنبي اصطيف

(الأدب العالمي) (World Literature)، أو (Weltliteratu)، بصورته الألمانية الأصل، مصطلح غامض على نحو مسرف، على حدّ تعبير (كلوديو غوين) المقارن الإسباني المرموق، وهو لذلك جد موحٍ إلى درجة تدعو إلى الخلاف أحياناً، وأحياناً أخرى إلى سوء الفهم. فقد فُهِم على نحو متنوّع تنوّعاً لافتاً للنظر، حتى باتت مسألة الإجماع على ما ينطوي عليه من مفهوم، طموحاً بعيد المنال. ففي نظر البعض، يشير المصطلح إلى عملية ترجمة لأثر أدبي، أو مجموعة من الآثار الأدبية، التي تنتمي إلى أدب قومي ما، أو أدب مجموعة بشرية (عرقية أو إثنية)، ومدوَّنة بلغة قومية ما، أو بلغة مجموعة بشرية ما، من لغة الإنتاج الأصلية إلى لغة أخرى، تُتيح قراءته من جانب الناطقين بهذه اللغة الأخيرة، ومعنى هذا أن تجاوز هذا الأثر لعائق اللغة، وربما لعائق الثقافة أيضاً إذا ما تيسّر توطينه في الثقافة الهدف، يُدخله في دائرة العالمية، بعد أن خرج من نطاق قوميته أو محليته من خلال عملية الترجمة هذه.

والمصطلح في نظر البعض الآخر، يشير إلى عملية تداول لأثر أدبيٍّ ما، خارج حدود إنتاجه، سواء أتم هذا التداول بلغته الأصلية، أم مترجماً إلى لغة أخرى غير لغته الأصلية. وعملية التداول هذه، خارج الحدود الزمانية والمكانية لفسحة إنتاجه، تُدخله في دائرة العالمية، لأنها تعني أنه تجاوز حدّي الزمان والمكان، فقُرِئ خارج بلد إنتاجه، وخارج زمن هذا الإنتاج من جانب قارئ عارف بلغته، أو مترجماً إلى لغة يعرفها هذا القارئ. وثمة فريق ثالث يرى أن المصطلح يشير إلى عملية إعادة تفسير لأثر أدبي قومي ما، من جانب متلقٍّ من ثقافة أخرى وبلد آخر وقوم آخرين، وأنه عندما يتّخذ صورة إعادة التفسير هذه، فإنه يقدّم قراءةً مختلفةً عن قراءة قرّاءٍ ينتمون إلى ثقافة منتجه ولغته وبلده، قراءةً مختلفة لأنها تستجيب لحاجات قوم المتلقي، وتنسجم مع إمكاناته وتأهيله وتكوينه الثقافي، ومن ثمّ تغدو عملية إعادة التفسير حواراً ما بين القوانين الأدبية المتجاورة، جوارَ القرب أو جوار البعد.

وهو بالنسبة إلى فريق رابع، شكلٌ من أشكال مقاومة قوى السوق الأدبية العالمية، المنحازة عادة إلى تلك القوى سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، وهو ما يتضح غاية الوضوح في هيمنة نزعة التمركز حول الذات الغربية، على تفكير العالم المتقدم في مسائل الأدب العالمي وقضاياه، وسعي العالَمَيْن الثاني والثالث إلى انتزاع مكان لأدبَيْهما في دائرة الأدب العالمي.

وثمة فريق خامس يرى في الأدب العالمي تأكيداً للوجود، وجود قوم أو شعب أو أمة، أو فئة اجتماعية، أو أقلية عرقية أو إثنية تريد أن تقول لسائر أمم العالم وشعوبه: إننا هنا، نحن موجودون في هذا العالم كما أنتم موجودون، وعليكم من الآن فصاعداً أن تلحظوا هذا الوجود في عالمنا المعاصر، فهو بهذا المعنى صرخةٌ توجّهها للآخر الذي يريد تهميشها.

وأخيراً: فإن المصطلح، فيما يراه معظم العاملين في ميدان الدرس المقارن للأدب، لا يعدو كونه قائمة مختارة بعناية من أفضل الآثار الأدبية، التي حكم الدهر بخلودها، والتي تُتداول على نطاق واسع بلغتها الأصلية أو مترجمة، عبر الزمان والمكان، متجاوزة حدود إنتاجها لتُستقبَل بمختلف الصور في مختلف العصور والبلدان.

والملاحظ في مختلف هذه العمليات المتصلة بمصطلح الأدب العالمي، أن الترجمة تكاد تكون مُلازماً مشتركاً فيما بينها، وربما كان هذا أوضح ما يكون في حالة الأدب العربي، الذي كان للترجمة دور كبير في انتشاره خارج حدود إنتاجه، مثلما كان لها الدور الأكبر فيما طرأ عليه من تحولات وتطورات عبر العصور.

والحقيقة أن ضروب التفاعل المختلفة، التي أدت الترجمة فيها الدور الأهم ما بين الأدب العربي والآداب الأخرى، قديمها ووسيطها وحديثها، قد تركت آثاراً واضحة في الأدب العربي نفسه، وفي العديد من الآداب القومية المجاورة والبعيدة جغرافياً. مثلما خلّفت آثارها في عدد كبير من اللغات المجاورة للعربية، وبخاصة عندما كانت اللغة العربية بحق، لغة العلم والفكر والمعرفة والثقافة والأدب في العصور الوسطى، أي عندما كانت لغة عالمية، ويمكن أن يشير المرء في هذا السياق إلى اللغات الفارسية، والتركية العثمانية، والكردية، والأوردية، ومن قبلها اللغات العبرية والسريانية والأمازيغية، فضلاً عن لغات أوروبية حديثة، كالإسبانية، والفرنسية، والإنجليزية، والتي تأثرت بدرجات مختلفة بالعربية في مراحل مختلفة من تفاعلها معها.

وقد ساعد انتشار الإسلام الواسع في العصور الوسطى، في شرق العالم القديم وغربه وشماله وجنوبه، على هذا التأثير في الآداب المختلفة، وأدواتها من اللغات المختلفة، التي تفاعلت مع الأدب العربي وأداته، مثلما ساعد عليه الموقع الاستراتيجي للوطن العربي في قلب العالم القديم، والذي جعله ملتقى للطرق التجارية بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، ومعبَراً، ومُستقَراً أحياناً، للناس ومنتجاتهم المادية والمعنوية.

وعندما نأتي إلى العصر الحديث، لا تفوتنا ملاحظة الدور الذي أداه الاستعمار على نحو غير مباشر في توسيع دائرة التفاعل بين الأدب العربي والآداب الأخرى من جهة، وتنامي هذا التفاعل وتخلُّله من جهة أخرى، لمختلف وجوه هذه الآداب، فيما بات يُعرف بفترة ما بعد الاستعمار، التي يعيش فيها الجميع في ظل هذه التركة، التي باتت تسخر من كل الحدود القومية والسياسية واللغوية، إذ لم يعد البقاء للأصلح، كما تقتضي قوانين الطبيعة، بل البقاء للأقوى: اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً واجتماعياً، لأنه الأقوى معرفياً، والمعرفة قوة.

> **يبدو من الصعوبة وجود إجماع على ما ينطوي عليه الأدب العالمي من مفهوم جلي**